مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 13، العدد 51 (صيف 2002)، ص 53

الضفة الغربية سنة 2002:
حكاية الحرب وحكايات منها

نبيل الخطيب*

مظفّر وجمال الصباغ والرصاصتان

مظفّر كان ساهياً، عيناه تكشفان السر بأن له من العمر ما لا يزيد على أربعة عشر عاماً، وجبينه امتلأ بتجاعيد لا تدل على العمر وإنما على التجربة، وتقول الشفتان المرتجفتان إن التجربة كانت مرعبة.

وصل مظفّر إلى قرية رمانة فاراً من مخيم جنين في اليوم السادس لحصاره. كان واجماً، وبقايا دماء جمال الصباغ على ملابسه وأطراف أصابعه. وكان يقص الحكاية وطرف دمعة في عينيه، مرتبكاً من الأسئلة، ومرعوباً من التجربة، وغاضباً من المهانة، وربما خجلاً من نفسه..

يصف مظفّر، وشفته السفلى ترتجف كمن يقف في أصعب المواقف أمام أبيه، كيف قتلت رصاصتان صديقه جمال. أو "ربما لم تقتلاه" – كما يستدرك بلكنة تتداخل فيها لهجة جنين بلهجة الساحل الذي رحل عنه جده وجدته إلى المخيم قبل أربعة وخمسين عاماً.

"كان جمال واقف جنبي، ومعاه ظرف [مغلف] أدوية" – بدأ مظفّر يقص الحكاية.

"أجا الجندي، وصرخ علينا لنقف، يجوز إنو الجندي الإسرائيلي اعتقد إنو المغلف فيه أسلحة!" – قال مستدركاً في محاولة لأن يجد لنفسه، على ما يبدو، سبباً للمصيبة التي تلاحقه – "طخ الجندي رصاصة.. لأ.. اثنتين، طار ‹الظرف› من يد جمال.. ووقع على الأرض. اطلّعت على جمال الصباغ ينازع واطلّعت على الجندي..".

كانت ارتجافات شفة مظفّر السفلى تزيد، والدمعة شبه المخفية في عينه تزيد. نظر إلى البعيد، إلى مكان المخيم.

"ما عرفتش شو أعمل"، قال مظفّر، "إذا هربت بدّو يطخني وإذا رجوته بدّو يطخني وإذا حاولت أسعف جمال بدّو يطخني" – قالها ووقف الكلام في فمه، ونزلت الدمعة. كان ما زال يفترض الذنب ويبحث عن كلمات تواسي "تقصيره" إزاء جمال، وبدا مقتنعاً بأنه كان في إمكانه إنقاذ جمال الصباغ.

---

* صحافي فلسطيني، مقيم بالضفة الغربية.

أخيراً تلفظ بما لا يريد: "وقّعت حالي عليه وعملت وكأنو الرصاصة الثانية أصابتني وعملت حالي ميّت، الجيش حسبني ميّت وراح، ولمّا رفعت حالي عن جمال، لقيته ميت وأنا عليّ الدم – دمّه، وهربت.. جمال هناك ميت."

ما إن أنهى مظفّر حكايته مع الجندي الإسرائيلي وجمال الصباغ حتى اختفت أي ملامح عن وجهه سوى الوجوم الكامل. عيناه حدّقتا إلى اللاشيء، وأصبح جبينه ناعم الملمس، وآثار خط الدمع على وجنته المغبّرة. "بدكم إشي منّي..."، سأل مظفّر بصوت فيه رجفة بكاء دفين، ولم ينتظر الإجابة، وراح يسير إلى مكان آخر في زقاق من أزقة قرية رمانة في اتجاه المسجد الذي تجمع فيه الناجون. عند المدخل كانت قوائم أسماء الأهالي الذين سبق أن وصلوا إلى قرية رمانة، كي يتاح للواحد منهم أن يعرف ما إذا كان قريبه في قيد الحياة أم لا.

تلك الحكاية رواها مظفّر في اليوم السادس من أيام حصار المخيم. ومنذ ذلك الوقت اعتاد أن يكررها للآخرين بعد أن رواها لنا.

ثمانية تحت الركام
لفتح الطريق أمام الجنود

"سمير الشعبي اختفى"، بدأ أهالي حارة القريون في البلدة القديمة في نابلس يقولون.

وفي حارات نابلس العتيقة، يتفقد الواحد جاره تماماً كما يتفقد ابنه في الأزمات.

"أنا قلتلّهم يا دار أبو العبد، إذا إنتو مش شايفين، الجرافات بتهدم داركم.. اطلعوا يا دار أبو العبد الشعبي"، قالت لنا فاطمة التي التقيناها في الحارة تنظر إلى "الآلة الكبيرة" (البولدوزر) وهي تنقب بين الركام. جاء محمود وقال: "أنا محمود الشعبي، سمير شقيقي، وأنا خائف أن يلاقي أبناؤه نفس المصير ولا يحظوا بفرصة للحياة."

وأردف مسترسلاً، لأنه أدرك ربما أننا لا نفهم قصده: "شقيقي سمير وزوجته الحامل بجنين في الشهر السابع وأبناؤهما عزام واثنان آخران وشقيقتاي عبير وفاطمة وأبو العبد وزوجته المقعدة.. جميعهم في هذه الدار المقسمة إلى ثلاثة بيوت.. واحد منها يطل على الشارع الأعلى والثاني في الوسط، والبيت الأخير هنا على هذا الشارع. لقد وجدنا يداً تظهر من تحت التراب في ما كان مدخلاً لبيت أخي سمير قبل أن تهدمه الجرافات الإسرائيلية قبل خمسة أيام. حفرنا وإذا بها يد أخي سمير الشعبي، أبو عزام. يده الأُخرى كانت تحمل شنطة فيها جوازات سفره هو وزوجته وفيها زينة ذهبية لزوجته. أخشى أن البيت هدم بينما كان سمير يتأهب لمغادرة بيته مع أبنائه الثلاثة وزوجته وشقيقتاي والآخرين. فهو يحمل أقل وأهم ما يمكن لأحد أن يحمله ساعة الهرب من الموت. ها نحن ننبش الركام، وتحت حظر التجوال، ولا آليات لدينا،

ولا خبراء يساعدوننا."

كان محمود يتكلم باندفاع غير عادي، لا يريد أن يصدق ما قد تنطوي عليه حقيقة وفاة شقيقه من أن المصير نفسه واجه باقي العائلة. "أليس من أحد يلتفت. ربما لو كان لدينا خبراء لأعطينا فرصة في الحياة لعزام وعبير وفاطمة.."، وبدأ يعدّ أفراد العائلة الثمانية تحت الركام.

في اليوم الثالث من البحث، وبعد اليوم السابع من الاختفاء ومحاولات الإنقاذ اليائسة، كان عزام ابن الرابعة من العمر وأشقاؤه الآخرون قد أُخرجوا من تحت الركام جثثاً هامدة. وعبير وفاطمة، الشقيقتان العزباوان لسمير، قضتا. كما أن زوجة سمير الحامل في شهرها السابع أُخرجت جثة من تحت الركام لتلحق بزوجها وأبنائها الثلاثة. وقد استمر البحث عن آخر اثنين سبق أن اختفيا: الشقيق الأكبر لسمير، أبو العبد (عبد الله الشعبي)، وزوجته المقعدة، كانا لا يزالان في قيد الحياة.

إنقاذ الأخ ابن الستين وزوجته أثار بهجة لدى "أبناء البلد" الذين يبحثون عن أمل بين الركام.

كان أول ما تكلما به: "كان تحت ظلام.. ظلام. معقول يعملوا فينا هيك، والله ما بهون علينا نعمل فيهم هيك" – كان أبو العبد يكرر، وهو يستذكر ما جرى. "كانت الجرافات تتقدم باتجاه قلب البلدة القديمة في نابلس، فجأة سمعنا ضجيج غير عادي، ضجيج وغبار وعتمة تزداد لتتحول إلى ظلام وظلام."

فقط بعد سبعة أيام أدرك أبو العبد أن الضجيج كان صوت الدبابات والجرافات الإسرائيلية تهدم بيت شقيقه سمير وبيت شقيقتيه عبير وفاطمة، وربما تطحن عظامهم بين الركام الذي تراكم فوق بيت أبو العبد وغطى النوافذ، فدخل الغبار وغاب النهار وعم الظلام.

قبل الاجتياح
في 28 و2002/3/29

الأربعاء، 27 آذار/ مارس 2002، كان عيد الفصح لدى اليهود. وسبق أن بلور أنتوني زيني، المبعوث الأميركي المكلف ملف الشرق الأوسط، في اليوم السابق للعيد، مقترحاته التي تعدل خطة تينيت (14 حزيران/يونيو 2001) بشأن إحلال الأمن بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل.

رفض الرئيس الفلسطيني تلك المقترحات، وأغضبه بصورة خاصة البند الأول الذي يعطي إسرائيل الحق في اقتحام المدن الفلسطينية (مناطق السيطرة الفلسطينية، التي تعادل 18٪ من أراضي الضفة الغربية).

مساء ذلك اليوم وصلت حصيلة القتلى الإسرائيليين نتيجة العمليات الفلسطينية

في كل من نتانيا ومستعمرة إيلون موريه (قرب نابلس) إلى 24 إسرائيلياً، منهم 20 في نتانيا.

الخميس، 28 آذار/مارس 2002 ظهراً، كان صائب عريقات يحاول، بتكليف من الرئيس الفلسطيني، الاتصال بزيني. "زيني غير موجود" – كان يكرر من يرد على الهاتف – إلى أن جاوب أرون ميلر (المساعد في الخارجية الأميركية الذي كان يرافق زيني في زيارته للمنطقة). حاول المسؤول الفلسطيني إثارة نقاش مع ميلر فيما يتعلق بوثيقة زيني لـ "فتح ثغرة في الباب الموصد"، الذي كان إغلاقه يعني احتمال توجيه ضربة قاصمة إلى السلطة.

– "Take it or leave it" (إمّا ترضون بها كما هي، وإمّا ترفضونها كلها)، كان جواب ميلر.

مقترحات زيني

تضمنت مقترحات زيني أن يعلن كل من زعيمي الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي وقفاً لإطلاق النار، كل إلى جمهوره، وبعد ذلك تمتنع حكومة إسرائيل من توجيه ضربات إلى مقر الرئيس، ومن تنفيذ عمليات في مناطق السلطة الفلسطينية. وفي نهاية الفقرة، كانت العبارة التي أثارت غضب عرفات، وفيها: "ما لم يكن ذلك في ردة فعل مباشرة، دفاعاً عن النفس ضد هجمة إرهابية وشيكة."

مدة تنفيذ الجزء الأمني:

اقتراح زيني: عندما ينفذ الفلسطينيون التزاماتهم، يصبح في الإمكان الانتقال إلى الجزء السياسي.

الموقف الفلسطيني: المطالبة بمهلة أسبوعين.

الموقف الإسرائيلي: المطالبة بمهلة أربعة أسابيع.

الاعتقالات:

اقتراح زيني: في المرحلة الآنية يتم اعتقال من يسمّون بـ "القنابل الموقوتة"، وفي المرحلة الثانية يتم اعتقال منفذي عمليات اعتباراً من لحظة توقيع اتفاق.

الموقف الفلسطيني: المطالبة باعتقال من ينفذ عمليات فقط، اعتباراً من لحظة توقيع اتفاق.

الموقف الإسرائيلي: المطالبة باعتقال من يسمون بـ "القنابل الموقوتة"، وكذلك قائمة المطلوبين الـ 105.

انسحاب الجيش:

اقتراح زيني: ينسحب الجيش بالتدريج خلال أربعة أسابيع إلى المواقع التي كان

يرابط فيها قبل الانتفاضة.

الموقف الفلسطيني: المطالبة بانسحاب الجيش فوراً إلى المواقع التي كان يرابط فيها قبل الانتفاضة.

الموقف الإسرائيلي: انسحاب الجيش بالتدريج من مناطق أ إلى المواقع التي كان يرابط فيها قبل الانتفاضة.

الحصار والطوق:

اقتراح زيني: إزالة الطوق ورفع الحصار بالتدريج.

الموقف الفلسطيني: المطالبة بإزالة كل الأطواق ورفع الحصار فوراً.

الموقف الإسرائيلي: الموافقة على إزالة الطوق بالتدريج وفقاً للتحذيرات الأمنية.

***

وصل القنصل الفرنسي العام إلى مقر الرئاسة الفلسطينية فيما يعرف بـ "المقاطعة" في رام الله، حاملاً رسالة تثير الريبة. قال: "إن كثّفتم الاعتقالات لناشطي حماس والجهاد الإسلامي"، وإن دعا عرفات شعبه صراحة "بالعربية" إلى الامتناع من مهاجمة الإسرائيليين، "ربما تتمكنون من تخفيف ردة الفعل المتوقعة، وربما استطعنا المساعدة."

الساعة 8 مساء

بعض وسائل الإعلام العربية (الفضائية) والإسرائيلية يتحدث صراحة عن تسريبات عسكرية إسرائيلية جدية بأن الساعات المقبلة ستشهد أكبر عملية للجيش الإسرائيلي منذ سنة 1967 في الضفة الغربية، تبدأ في رام الله وتشمل حصار مقر الرئيس الفلسطيني واقتحام بعض الأبنية المجاورة.

الساعة الثامنة مساء (أيضاً)

محمد دحلان، جبريل الرجوب، د. صائب عريقات، ياسر عبد ربه، نبيل أبو ردينة، محمد رشيد، حسن عصفور وآخرون، يحيطون بعرفات ويقنعونه بعقد مؤتمر صحافي بحجة التعقيب على بيان مؤتمر القمة العربي، على أن يتطرق فيه إلى نبذ قتل المدنيين، ويكرر موقفه بحظر إطلاق النار (علّ وعسى أن يعطي ذلك هامشاً للجهود الأوروبية في الحد من ردة الفعل الإسرائيلية).

الساعة التاسعة مساء

عرفات يعقد مؤتمراً صحافياً، يحيط به عريقات وعبد ربه، بينما يقف باقي المساعدين إلى جانب الحائط، ويعقب عرفات فيه على البيان الختامي لمؤتمر القمة

العربي، ويُتبع تصريحه بتأكيد الموقف الذي سبق أن أعلنه في 16 كانون الأول/ديسمبر 2001 بوقف إطلاق النار.

تنهال الأسئلة وتتكرر بالإنكليزية: "لماذا لا تعلنون لشعبكم أن على الجميع الامتناع من توجيه الضربات إلى إسرائيل؟" – الجواب واحد: "كان عليكم أن تستمعوا جيداً إلى ما قلت، أنا أذكّر بموقف 16 كانون الأول/ديسمبر."

– "لماذا لا توافقون على ورقة زيني؟" ويأتي الجواب واضحاً وحاداً: "نحن مع جهود الولايات المتحدة، لكن نحن نوافق على خطة تينيت من دون تعديلات. إن أرادوا تقديم أفكار جديدة سنبحث فيها، لكن لا نقبل أن يقدموا إلينا أوراقاً جديدة ويسمونها "تينيت".

انتهى المؤتمر الصحافي، ونظر الصحافيون إلى بعضهم البعض وهمسوا: "لا مناص من المواجهة الليلة."

الساعة الواحدة

بعد منتصف الليل

الجمع ما زال يحيط بعرفات، وانضم إليه إسماعيل جبر (قائد الأمن الوطني – الجيش)، وتوفيق الطيراوي (مدير المخابرات الفلسطينية في الضفة الغربية)، وآخرون.

طلب الرئيس الفلسطيني عرض أسماء ناشطين يمكن اعتقالهم، بما قد يخفف من حدة الضربات الإسرائيلية بناء على "النصيحة الفرنسية" و"التهديد الأميركي".

وكانت التحذيرات التي تصل إلى آذان الرئيس عرفات متضاربة، لا عن حتمية اجتياح إسرائيلي، وإنما إلى أي مدى سيصل الاجتياح.

والتقدير الحاسم كان أن الاجتياح لن يستهدف مقر الرئاسة الفلسطينية كما أذاعت وسائل الإعلام.

طلب أحد قادة الأجهزة الأمنية أن يحصل على قاذفات "آر. بي. جي." المضادة للدروع، فجاءه الجواب سريعاً من قائد الأمن الوطني: "المتوفر قليل، ونحتاج إليه للدفاع عن مقر الرئاسة."

طلب حرس الرئاسة الحصول على هذه الأسلحة، فكان الجواب: "لن يصل الجيش الإسرائيلي إلى مبنى الرئاسة الذي يقيم فيه الرئيس."

توقع الرئيس عرفات حصاراً طويلاً، وطلب أن يُشرَع في اليوم التالي في حفر بئر ماء (مستبعداً أن يشمل الاجتياح ساحة مقره، وفق التقديرات التي قدمت له).

الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين
بعد منتصف الليل

غادر صائب عريقات إلى أريحا، وياسر عبد ربه وحسن عصفور إلى بيتيهما، ومحمد رشيد ومحمد دحلان إلى بيت أحد أصدقائهما بصحبة جبريل الرجوب الذي غادر إلى بيته.

صدرت التوجيهات الأخيرة عن قيادة الأمن الوطني في مقر الرئيس في الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين بعد منتصف الليل إلى قوات الأمن في مختلف الأجهزة، بالمقاومة، لكن "هي ليست المعركة الأخيرة.. لن يصلوا إلى مقر الرئيس."

الساعة الثالثة
والدقيقة الثلاثين فجراً

بدأ زحف المدرعات الإسرائيلية من المحور الشمالي والشمالي الغربي (الأقرب إلى مقر الرئاسة)، واستمرت العمليات تحكم الطوق حول مقر الرئاسة في رام الله والبيرة. ومع حلول الساعة الخامسة صباحاً، لم يعد في إمكان أحد مغادرة مقر الرئاسة أو الوصول إليه.

أُحكم الطوق حول مقر الرئيس الفلسطيني، وأطلق شارون على ذلك اسم "عزل عرفات".

في الساعة السابعة صباحاً، بالتوقيت المحلي، أجرت تلفزة "الجزيرة" مقابلة حية على الهواء عبر الهاتف مع الرئيس عرفات، قال فيها: "يريدوني إمّا قتيلاً وإمّا سجيناً وإمّا طريداً.. لأ، أنا بقولهم.. شهيداً.. شهيداً.. شهيداً."

كانت هذه الإشارة القوية إلى الفلسطينيين (كلمة السر) بأن الخطورة وصلت إلى أوجها.

لم يتصل أحد من الخارج بعرفات في الساعات الأولى التالية، كما كانت اتصالات المسؤولين العرب في الأيام التالية محدودة، وبقي أنتوني زيني في إسرائيل.

في مواجهة مصيرهم

اعتمدت القوات الإسرائيلية الغازية لرام الله والبيرة، في أول أيام الاجتياح، على أعداد هائلة من المدرعات والدبابات، قُدر عددها بأكثر من 250 مدرعة، منها على الأقل 150 دبابة.

كان في المدينتين نحو 7000 فلسطيني يرتدون زي الشرطة الفلسطينية (الأزرق – للنظام العام، والأخضر – الأمن الوطني)، ويحمل معظمهم الرشاشات، من طراز كلاشنكوف، التي سمح اتفاق أوسلو للسلطة بإدخالها. وإلى جانبهم، كان هناك

عدد من المقاتلين من الأجهزة الأمنية الأُخرى ومن كتائب شهداء الأقصى وغيرهم ممن وُجدوا في شوارع المدينتين المتلاصقتين قبل ساعات من الاجتياح، نحو 500 (يرتدون الملابس المدنية).

منذ الساعات الأولى للاجتياح شرعت القوات الإسرائيلية في نصب قواعد القناصة في المباني المرتفعة، وأطلقت النار على كل من يتحرك.

تقلصت مساحة المناورة لدى المقاتلين ولدى أفراد الشرطة والأجهزة الأمنية. ومع إحكام الاحتلال، اختفى كل من تمكن منهم في المباني المجاورة.

قضت رصاصات على فاطمة زلوم (في الساعة الخامسة فجراً)، بينما كان زوجها يحاول إيصالها مع رضيعها إلى بيت والده طلباً للأمان. الرصاصات استهدفت السيارة وفيها الزوجان وطفلهما. وكانت الزوجة انحنت على طفلها لتحميه من الرصاص المنهمر ومالت على كتف زوجها حماية له.

قضت فاطمة، وأصيب زوجها بجروح بالغة، وبقي الطفل سالماً. ووري جثمان فاطمة الثرى في المقبرة الجماعية الأولى التي تعرفها رام الله، في باحة مستشفى الطوارئ في المدينة.

استهدف الرصاص أيضاً المصور الصحافي كارلوس حنظل بينما كان يسوق سيارته قاصداً ناحية مقر الرئاسة في رام الله، وأصيب في فمه إصابة خطرة.

رائحة الموت انتشرت في كل زاوية، واختلطت بهواء المدينة البارد. وبعد أن هبط ليل اليوم الثالث (الأحد) بدأ أزيز الرصاص يشق ليل المدينة بقسوة.. "أمر ما يحدث في رام الله".

كان هناك تحركات "مريبة" على بعد نحو خمسمئة متر من مقر الرئاسة الفلسطينية، وإطلاق نيران كثيف من مدفعية ثقيلة منصوبة على المدرعات الإسرائيلية، موجهة إلى داخل مبان، بينما في الفسحة الضيقة بين النار والنار، كانت مكبرات الصوت التابعة للجيش الإسرائيلي تطالب المحاصرين بالخروج وتسليم أنفسهم.

خرج مروان الشوري، المسؤول في الشرطة الفلسطينية، والبالغ من العمر خمسين عاماً ونيف، من المبنى، فانهالت عليه أوامر جنود الاحتلال بالوقوف وخلع ملابسه. لم يفهم العبرية. اعتقد، على ما يبدو، أن المطلوب منه هو الاقتراب من الجنود الإسرائيليين المختبئين في العتمة وغير المرئيين له. لكن ما إن تقدم حتى أُطلقت النيران على رأسه وصدره فسقط مضرجاً بدمائه.

مراد عوايسه لم يتجاوز عمره العشرين، كان يقف خلف قائده فأصيب وبقي ينزف حتى الموت.

استمر إطلاق النار، وملأت المدينة شائعات عن "مذبحة" تجري في المبنى.

في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين بعد منتصف الليل فقط، سمحت قوات الاحتلال لسائق سيارة إسعاف جمعية الإغاثة الطبية، كريم، بأن يتسلم الجثمانين، وينقلهما إلى "ثلاجة الموتى" المكتظة في مستشفى رام الله. وقد شاهد كريم أكثر من عشرة جرحى آخرين قال إن القوات الإسرائيلية اعتقلتهم، على ما يبدو، كما دأبت أن تفعل مع الجرحى الآخرين.

وكلما كان الجنود الإسرائيليون "يشتمّون" رائحة رجال شرطة أو أمن وطني فلسطيني مختبئين في مبنى ما، كانوا يحاصرونه ويستمرون في قصفه حتى يقتل من يقتل ويجرح من يجرح ويستسلم من يستسلم. وكان يتم اعتقال الجرحى والمستسلمين.

لم تعرف أغلبية رجال الأمن الوطني والشرطة الفلسطينية أين تختبئ، وبماذا تقاتل. وإن أحرقت الزي العسكري الرسمي طلباً للأمان، فمن أين تحصل على ملابس مدنية؟! فمعظمهم غرباء عن المدينة، وفق سياسة الأمن الفلسطيني منذ تأسيس السلطة الفلسطينية التي قضت، لسبب ما، باعتماد نقل الموظفين في الأمن الفلسطيني من غزة للخدمة في نابلس أو رام الله، ومن هو من نابلس يخدم في الخليل، ومن هو من الخليل يخدم في غزة – جميعهم غرباء على الواقع الجديد وفي حالة ارتباك لإدراكهم أن لدى الواحد منهم ثلاثين رصاصة في مواجهة مدرعات. وكان مصير الخمسة الذين قتلهم الجيش الإسرائيلي فيما يعرف بمبنى "بنك القاهرة عمان" في شارع "الكلية الأهلية" مروعاً. تُرى هل شعروا، قبل إعدامهم، بأنهم تُركوا لمصيرهم؟

وكان الأهالي في رام الله والبيرة – ربما بسذاجة – يستجدون، لعل أحداً يغيث مريضاً بفشل كلوي ليصل إلى المستشفى، أو مريضاً بمرض السكري للحصول على جرعة أنسولين. أو لعل أحداً يساعد رب منزل توفيت والدته، وبقي جثمانها وسط الأولاد، في نقله إلى المستشفى أو مواراته الثرى.

فالتحرك خارج نطاق جُدُر البيت يعني الموت.

والاستجداء بأجهزة الأمن لا يفيد.

والاتصال بالوزارات لا يلقى إلاّ الصمت.

والاتصال بالمؤسسات الأهلية يلقى أبواباً موصدة.

والاتصال بمؤسسات الإغاثة الإنسانية لا يجدي نفعاً، بعد أن حظّرت القوات الإسرائيلية عليها التحرك من دون تنسيق مسبق.

فجأة كل شيء انهار.

شعر الأهالي بأن لا أحد يغيثهم.

لا أحد يتحرك في شوارع الموت إلاّ مدرعات الاحتلال التي كانت تنشر الموت،

والصحافيون الذين كانوا يتنقلون خلسة تحت وابل الرصاص ليسترقوا لقطة توثّق ما يجري.

أدرك حينها المواطنون أنه لم يكن في بال أصحاب الشأن توقع ما جرى، ولم يكن لهم بالتالي أن يهيئوا أنفسهم للطوارئ..

شعروا بأنهم تُركوا لمصيرهم.

الوجه الآخر
أو
المقاومة في جنين ونابلس

بعد رام الله والبيرة وبيتونيا وبيت جالا وبيت ساحور وبيت لحم، توجهت القوات الإسرائيلية في اليوم الخامس لبدء الاجتياح إلى نابلس، ومن ثم إلى جنين.

في نابلس كان القرار الشعبي: التصدي. شكل الأهالي وأطراف المقاومة مجموعات طوارئ: واحدة للمقاومة، وأُخرى للإغاثة الطبية، وثالثة للمعونة الإنسانية. وأقيمت مستشفيات ميدانية اتخذت من بعض مساجد البلدة القديمة مقراً لها. ولجأ عدد من المسؤولين إلى الكنائس، في الأحياء الغربية للمدينة. وتمركز الشبان ومتطوعون ومتطوعات من الأطباء والمساعدين الطبيين في أحياء البلدة القديمة في المدينة التي "حبستها" الجغرافيا بين جبلين، وحددت شخصية قاطنيها بعناد الغريب أياً كان.

اقتحمت القوات الإسرائيلية المدينة والمخيمات والقرى المحيطة، ولم يستغرقها الأمر سوى ساعات.

شاعت التساؤلات عن سهولة اجتياح المدينة، لكن لم يتساءل أحد عن سبب إحجام القوات الإسرائيلية عن اجتياح البلدة القديمة. قال النابلسيون: "انتظروا لتروا ما ينتظر المحتلين في البلدة القديمة." وبدأت المعركة في البلدة القديمة في اليوم الثاني من احتلال نابلس، وكانت قاسية على الطرفين.

قسّم المقاومون البلدة القديمة إلى مناطق، وفي كل منطقة تم تعيين قائد مسؤول عن القتال، وتم تلغيم وتفخيخ كل محاور البلدة القديمة ومداخلها وأزقتها، ووضعت العبوات أيضاً على الأشجار والنوافذ من أجل إسقاطها على رؤوس الجنود.

خطط الفلسطينيون لمعركة بطولية، لكن الجيش فاجأهم وداهمهم من اتجاه غير متوقع. لم يكن في استطاعة المقاومين الصعود إلى سطوح المنازل وإلاّ تعرضوا لقصف جوي، "وحين توجهوا إلى خارج الأزقة لنصب كمائن للمحتلين باغتهم الجنود من داخل البيوت." فقد نفذ الجيش الإسرائيلي تكتيكاً سبق أن نفذه في مخيمي بلاطة والأمعري في نهاية شباط/فبراير 2002. كان يتنقل من خلال ثغرات فتحها في جُدُر المنازل وامتنع من القتال في الأزقة.

المعارك كانت ضارية، و"قاتل الفلسطينيون كالأسود" – قال الرائد أودي، قائد وحدة المظليين الإسرائيليين التي شاركت في احتلال البلدة القديمة. وتحدث ضابط رفيع المستوى قاد عملية احتلال البلدة القديمة، بتقدير، عن "الإصرار الفلسطيني حتى اللحظة الأخيرة، حتى حين بدا ذلك عديم النفع"، وأضاف: "لقد بذلوا المستطاع من أجل إنقاذ جرحاهم، حتى حين كلفهم ذلك ثمناً باهظاً."

تقدم الجيش الإسرائيلي بمقدار سرعته في تدمير البيوت، وأحياناً على رؤوس من فيها، كما حدث لعائلة عبد الله الشعبي وأشقائه، آنفة الذكر.

زيارة المدينة تظهر حجم الدمار الذي خلفه جنود الاحتلال الذين داهموا البيوت. وكان استخدام الدبابات والجرافات العسكرية أقسى من أن تحتمله أزقة البلدة القديمة في نابلس: الأشجار والأرصفة اقتُلعت، والجُدُر والأعمدة الكهربائية كأنها لم تكن.

الجيش الإسرائيلي لم يسمح لأهالي نابلس، إلاّ في اليوم العاشر لاحتلال المدينة، بالخروج من منازلهم لمدة ثلاث ساعات. خرجوا، واضطروا إلى شراء الطحين بدلاً من الخبز، لأن الأفران لم تعمل.

بعد عودة الأهالي إلى بيوتهم تذكّروا أن ثلاجات الموتى في مستشفيات المدينة امتلأت بـ 45 جثماناً، منهم 38 من ضحايا العمليات الإسرائيلية، لكن أحداً لم يخطر بباله أن يهتم بدفنهم لفسح المجال في الثلاجات للضحايا المرتقبة.

في نابلس اكتظت ثلاجات "البوظة" والألبان بجثامين الضحايا.

"أبو جندل"
في جنين

اسمه يوسف أحمد ريحان، وهو يحب الاسم الغريب الذي لا يذكر من أطلقه عليه – "أبو جندل".

أبو جندل ضابط في الأمن الوطني الفلسطيني.

بعد إحكام الحصار على جنين ومخيمها، انتقل أبو جندل إلى المخيم، موقع المعركة الذي اختاره هو وزملاؤه الذين شكلوا مجموعات المقاومة الشعبية الموحِّدة لمختلف مشارب المقاتلين السياسية.

من هم خارج جنين لم يعرف أحد منهم جمال أبو الهيجاء من قبل، إلاّ الصحافيين الذين عاصروا "غضبة" أبو جندل في مواجهة أحد ضباط الجيش الإسرائيلي عند أحد مداخل بيت لحم في سنة 1996، عندما طالب كلٌ منهما الآخر بأن يسحب قواته من محيط "قبة راحيل". أبو جندل صرخ يومها بالضابط الإسرائيلي قائلاً: "إذا لم تسحب قواتك فلن أفعل أنا أيضاً." وبعد التفاهم على التعامل بالمثل، مد الضابط الإسرائيلي يده إلى أبو جندل، فصرخ أبو جندل، وبهدوء داخلي أيضاً: "أنا لا أصافحك"، وانسحب

معطياً ظهره للضابط الإسرائيلي.

في جنين اختار أبو جندل ورفاقه المواجهة.

لا أكثر من 200 مقاتل، وكمية قليلة من الذخيرة، وكثير من المتفجرات جمعها المقاومون احتياطاً. وفي المقابل، أكثر من 300 دبابة ومدرعة، ولا أقل من خمس جرافات عسكرية ضخمة تسير ببطء وتقضي في آن واحد على كل الذكريات الجميلة والحزينة لأهالي المخيم. صفوف من ركام الصالونات والغرف والمطابخ مكشوفة بعد أن دمر الإسرائيليون البيوت.

أطفال فلسطينيون يتصرفون كالكبار. صورة الأطفال هذه مغروسة في وجدان من يزور المخيم (قبل الفاجعة وبعدها). بحر من الأطفال، والبيوت المهدمة. مئات من أشباه مظفّر مشدوهين.

عجوز تبحث عن شجراتها التي تعهدتها بالعناية على مر الزمن، ربما عوضاً عن بيارتها التي فقدتها سنة 1948. لكنها هذه المرة غاضبة أكثر من المرة السابقة، أكثر من سنة 1948. ففي المرة السابقة، كما قالت: "لم أكن أعرف معنى العراء والتهجير الذي سيحل بي. بعد سنة 1948 عرفت، والآن أدرك ما ينتظرني." وأردفت قائلة: "لا نريد أحداً، ولا نريد شيئاً.. اللي عشنا عشانهم ماتوا عشانا" – قالت هذا بلهجتها الفلسطينية. قالته بحرقة، ودموعها بدت حارّة مثل "ماء النار."■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf